القصيدة النبوية البديعية بين الدرس البلاغي والإبداع الشعري

مقاربة نصية بين البردة البوصيرية وبديعية مواهب البديع في علم البديع لابن الخلوف القسنطيني

د. حكيمة بوشلالق

الملخص:

تعتبر البديعيات نمط جديد من أنماط الانزياح عن النموذج المكتمل في غرض المدح النبوي وبالأخص في نص البردة لمحمد بن سعيد البوصيري، لأن هذه القصائد هي امتدادا لها، ونتاجا عنها، بل هي عبارة عن نصوص مستنسخة منها، مع وجود فوارق كثيرة بينهما ولعل من أهمها:

أن نص البردة عبارة عن قصيدة طويلة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بحيث تتضمن ألوان كثيرة، وتراكيب عديدة سواء من الجهة النحوية الصوتية، أو من الجهة الدلالية بين علمي البيان والبديع، دون أن تخص كل أبياتها بلون محدد من ألوان البيان والبديع.

وأما نص البديعيات عبارة عن قصائد طوال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بحيث يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع.

ومع ذلك فقد انزاحت قصيدة البردة عن شكلها التقليدي النموذجي، وراحت تبحث عن صيغ أسلوبية وأشكال هندسية جديدة، فدشنت بذلك عهدا جديدا ومتطورا الذي لحق هذه القصيدة على مستوى الرؤية حين تأثرت بالثقافة الصوفية وأبعادها الرمزية.

وكذلك يمكن أن نصنف القصائد البديعية بأنها: "نصوص متفرعة عن نص البردة"١، ولعل أهم علم اتبع البوصيري وتأثر به الشاعر ابن الخلوف القسنطيني، وذلك من خلال التشكيل الموضوعي الذي سنلاحظه في بديعيته التي بين أيدينا.

أولا: محمد بن سعيد البوصيري.

١-حياته:

هو سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن ملال الصنهاجي، كان أحد أبويه من أبوصير، والآخر من دلاص، فركبت له نسبة منهما، وقيل الدلاصيري لكنه اشتهر بالبوصيري٢.

وقال ابن تغري بردي: "وكانت له –يعني البوصيري- أشياء مثل هذا يركبها من لفظتين مثل قوله كساء، بساط، فقيل لماذا تسميه ذلك؟ فقال: لأني تارة أجلس عليه، وتارة أرتديه، فهو كساء وبساط، إلا أن هذا اللقب ظل مجهولا، ولم يشتهر إلا بالبوصيري، ويكنى بشرف الدين٣.

كما يذكر بأن المؤرخَين ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) و المقريزي (ت٨٤٥هـ) اختلفا في اسم البلدة التي ولد فيها البوصيري، فقد رأى ابن تغري أن مولده كان ببهشيم من أعمال البهنسا، في حين يرى المقريزي أنه ولد بناحية دلاص، ولكنهما اتفقا على أنه ولد في يوم الثلاثاء أول شوال ٦٠٧هـ/٦٠٨هـ أو ٦١٠هـ٤، الموافق لـ: ١٢١٢م٥، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٩٦هـ، الموافق ل: ١٢٩٧٦م.

وللإمام البوصيري مقام ومسجد بمدينة الإسكندرية، قبالة مقام وجامع أبي العباس المرسي، حتى قيل: «إنه جاوز أستاذه في حياته وبعد مماته»٧.

وقد عاش في عصر المماليك أيام السلطان الظاهر بيبرس، الذي غير نظام

القضاء بعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، ينتمي إلى المذهب الشافعي.

ويبدوا أن البوصيري في صغره قد بحث عن أسباب الثقافة فحفظ القرآن الكريم، ثم درس الأدب والعلوم الدينية، وشيئا من علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض٨، كما أخذ آداب التصوف عن الشيخ أبي العباس المرسي (ت٦٨٦هـ-١٢٨٧م) خليفة أبي الحسن علي بن عبد الله مؤسس الطريقة الشاذلية، ويقال: بأن البوصيري قد تأثر بتعاليمها، ودرس آداب الصوفية وأسرارها٩.

وإذا كان البوصيري قد أخذ نصيبه من القرآن الكريم والنحو والصرف وجانبا من التاريخ الإسلامي وبخاصة السيرة النبوية فإنه كان يطالع أيضا المؤلفات التي يضعها النصارى واليهود تأييدا لأديانهم، لكنه رأى فيها إنكارا لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فدعاه ذلك إلى دراسة الإنجيل والتوراة دراسة دقيقة، كما درس تاريخ ظهور المسيحية، ثم أخذ يرد على أصحاب هذه الديانات.

ويقال عنه أيضا: "أنه نجم المادحين، وخيرة العارفين بالله، والمحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جياش العاطفة في محبته صلى الله عليه وسلم، صادق الإيمان، قوي اليقين، تدفقت شاعريته الملهمة بالعديد من القصائد الدينية"١٠.

٢-شعره:

يحفل ديوان البوصيري بعدد من القصائد الشاهدة على استيعاب للسيرة النبوية ومعرفة بدقائق النبي، وعلى نفس فاضت بحبه صلى الله عليه وسلم، فأوقفت شعرها على مدحه، والذود عن رسالته، والرد عن المناوئين لها، واللجوء إليه لطلب الشفاعة.

ويبدو أن شعر البوصيري في المديح النبوي استوحى العديد من ملامحه ومعانيه وصوره من قصيدة كعب بن زهير "بانت سعاد" التي تعد باكورة هذا الفن.

على أن شعر المديح النبوي الذي زينه المحافل المولدية في البلدان العربية الإسلامية منذ قرون وإلى أيامنا هذه، استوى على سوقه وأصبح غرضا له معجمه وبينه وعاطفته وصوره وفنا له خصائصه وقواعده وأصوله، مع البوصيري الذي كان سلوكه الصوفي المفعم بالمحبة النبوية عاملا آخر من العوامل التي كانت وراء استفراغ طاقته الشعرية ومعرفته الدينية والتاريخية لمدح النبي صلى الله عليه وسلم١١، وهذا اللون يكاد يكون أبرز الفنون في العصر المملوكي١٢.

٣- شهرته من خلال بردته.

ولعل أيضا بسبب شهرة البوصيري في قصيدته البردة التي تعتبر أهم القصائد بين المدائح النبوية، إذ أنها أصبحت مصدر الوحي لكثير من القصائد التي أنشئت بعد البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وعن سبب وضعه لهذه القصيدة، قال: "كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى أن يعافيني، وكررت إنشادها وبكيت، ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليَّ بردة، فانتبهت ووجدتُ في نهضة فقمت وخرجت من بيتي"١٣.

٤- البردة وأقسامها وموضوعاتها وأثرها.

تقع البردة× في اثنين وستين ومائة بيت١٤ ومطلعها [من البسيط]١٥:

أمِنْ تذَكُّر جيرانٍ بذي سلم
مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ
أمْ هبّت الريحُ من تلقاء كاظمة
وأوْمَضَ البَرْقُ في الظلْماءِ منْ إضَمِ
لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ
ولا أرقتَ لذكر البانِ والعَلَمِ
يا لائمي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً
منِّي إليكَ ولو أنصفتَ لم تلُمِ

والبردة عدة أقسام١٦:

القسم الأول: في الغزل وشكوى الغرام

القسم الثاني: في التحذير من هوى النفس

القسم الثالث: في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

القسم الرابع: في مولد عليه السلام.

القسم الخامس: في معجزاته صلى الله عليه وسلم

القسم السادس: في سر القرآن الكريم

القسم السابع: في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم

القسم الثامن: في جهاده عليه السلام.

القسم التاسع: في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم

القسم العاشر: في الاستغفار والمناجاة وعرض الحاجات.

ويختمها بالتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ومناجاة المولى عز وجل وطلب غفرانه له ولجميع المسلمين:١٧

خَدَمْتُهُ بمديح أستَقيل به
ذُنوبَ عُمْر مَضَى في الشّعر والخِدَم
فَإنّ لي ذمّةً منه بتَسميَتي
مُحمّدًا وَهْوَ أوفَى الخَلق بالذّمَم
حاشاهُ أنْ يحرمَ الرّاجي مكارمهُ
أو يرجعَ الجارُ منهُ غيرَ محترم
يا أكرمَ الخلْق مالي مَن ألوذُ به
سواك عند حلول الحادث العَمم
يا ربّ بالمصطفى بلّغ مقاصدنا
واغفر لنا ما مضى يا واسعَ الكرَم
واغفر إلهي لكل المسلمين بما
يتلوه في المسجد الأقصى وفي الحرم
بجَاه مَنْ بَيْتَهُ في طَيْبَة حَرَمٌ
وَاسْمُهُ قَسَمٌ مِنْ أعْظَم الْقَسَم

ويبدوا أن البردة ما زالت تحتل –كما يقال– المكان الأول بين المدائح النبوية وكل الأشعار التي خاض ناظموا في هذا المجال شرفا لهم.

كما حظيت البردة بمكانة لم تصل لها أية قصيدة سواها، وخاصة عند أهل التصوف، وإذا كان مقياس خلود العمل الأدبي هو الاهتمام من الناس والانتشار؛ فإن البردة –كما ذكر– نالت الخلود والشهرة في العالم الإسلامي واحتلت مكانة أدبية فريدة في الأدب العربي، وفي الآداب العالمية[١٨]، شرقا وغربا وحفظها العام والخاص، وتغنى بها الناس في الموالد والأذكار، وأكثروا من تلاوتها في شتى المناسبات.

وأخذت البردة أسماء كثيرة منها[١٩]:

- الكواكب الدرية في مدح خير البرية؛ لاشتمالها على مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم
- البردة؛ لأن الناظم –كما قيل– برئ بسببها من علته.
- الشدائد؛ لأنها تقرأ لتيسير العسير.
- والبردة؛ لأن الشاعر أراد التبرك بقصيدة كعب بن زهير.

أ- أثر قصيدة البردة في المدائح النبوية:

لقد أثرت ميمية البوصيري في المدائح النبوية تأثيرا عميقا، لأنها تعد من أهم القصائد بين المدائح النبوية، فهي أولا قصيدة جيدة، وهي ثانيا: أَسْيَرُ قصيدة في هذا الباب، وهي ثالثا: مصدر الوحي لكثير من القصائد التي أنشئت بعد البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلمن ولها تأثير كبير سواء من حيث المضمون أو الشكل.

أما من حيث المضمون فقد نقلت المدائح النبوية من المدح المعتاد للنبي الرسول صلى الله عليه وسلم بأوصافه المشهورة المعروفة، إلى أوصاف مبالغ فيها على نحو إعجازي خارق بالغ المثالية، بالغ الكمال، وبالغ الجلال...، يرقى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى درجة كبيرة، ويسمون هذه الأوصاف (الحقيقة المحمدية) التي يدعي المتصوفة أن غيرهم لا يعرفونها[٢٠].

أما من حيث الشكل فقد جعلت المدائح النبوية تتكون من ثلاثة أجزاء، الجزء الأول: يسمى النسيب النبوي، وهو التشوق إلى المدينة النبوية التي تضم قبر النبي صلى الله عليه وسلم وفيها جرت أغلب أحداث سيرته، ويتلو هذا النسيب بعض الحكم التي تحذر من الدنيا وأهواء النفس.

الجزء الثاني: مدح النبي صلى الله عليه وسلم وعرض سيرته وهذا الجزء هو غرض القصيدة، وفيه يذكر الشاعر سيرته من مولده إلى وفاته صلى الله عليه وسلم، ويتكلم عن معجزاته وخصائصه.

الجزء الثالث: هو إقرار الشاعر بذنوبه وطلب العفو عنه... وفي هذا الجزء الأخير يختتم البوصيري قصيدته بالصلاة والسلام الدائمين على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الجزء يكثر فيه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به[٢١].

ب- أثر قصيدة البردة على المتلقين:

متلقو البوصيري متنوعون تنوع الفترات التاريخية التي عاشوا فيها، فمنهم المتلقون القدامى ومنهم المحدثون.

- في مجال الرواية: قام المتلقون برواية البردة وشرحها وتدريسها وإنشادها أيضا حيث يقول سعيد ابن الأحرش: (أنه لم تحظ قصيدة من قصائد الشعر العربي بمثل ما حظيت به قصيدة البردة للبوصيري، من الاهتمام بحفظها وروايتها وتدريسها، ومن الذين رووها على سبيل المثال في الجزائر محمد بن مرزوق وحفيده، وشرحها في كتاب سماه "إظهار صدق المودة في شرح البردة".

ولقد لقيت هذه المدحة النبوية استحسانا وقبولا من قبل العلماء والأدباء وذاع صيتها في جميع البلاد الإسلامية، خاصة في مصر والحجاز والشام والمغرب، والأندلس، وأصبح البوصيري لا يعرف إلا بها، إذ يوصف في ترجمته بصاحب البردة أو ناظم البردة[٢٢].

- في مجال الإقراء والتدريس: لقد عني المغاربة والأندلسيون بالسيرة النبوية

عناية بالغة تمثلت فيما ألفوا وأنشأوا من دواوين وما سبقوا إليه من غيرهم من الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف.

ولما دخلت البردة إلى المغرب والأندلس، تزاحم الناس على حفظها وتدريسها وشرحها، ومن المشهورين بتدريس البردة في المغرب الإسلامي المؤرخ النسابة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الذي كانت له حلقة يدرس فيها القصيدة بفاس، وكان يجتمع حوله تلامذته وطلبة العلم، وكان معروفا بتعلقه بالتاريخ الإسلامي، وسيرة النبي الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل ما شرحه وسجله على قصيدة البردة من ملاحظات أودعه في كتاب سماه "استنزال الفرج بعد الشدة في شرح قصيدة البردة".

ويوجد في غرناطة أبو محمد بن جزي الذي شرح حماسة أبي تمام، وقصيدة البردة واستخرج ما فيها من مواد علمية وأدبية ولغوية وتاريخية، بالإضافة إلى أنه قام بإعراب أكثر أبيات البردة مما صعب على طلب العلم فهمه، وهذا الإعراب ينقله الشيخ أبي العباس جعفر البقني في كتابه الموسوم "العدة في شرح البردة".٢٣.

ويعتبر البوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، والقصيدة أثر في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعنها تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير عنيت بها لغة التخاطب، وعنها عرفوا أبوابا من السيرة النبوية، وعنها تلقوا أبلغ درس في كرم الشمائل والخلال، وكذلك استطاع البوصيري -على حد رأي زكي مبارك- بتصوفه أن يؤثر في الأدب والأخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخّاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم٢٤، كما ترجمت إلى عدة لغات عالمية٢٥

فهي على العموم توصف بقوة الأسلوب وحسن الصياغة وجودة المعاني وجمال التشبيهات وروعة الصور.٢٦.

ويعتبر المنهاج الذي سار عليه "البوصيري" هو مؤسس من خطوات سابقة عليه، أو أنه شكل هيأتها وفق تعديلية، فأصبحت بعده الطريقة المتبعة والسنن الذي لا محيد عنه.

وفي هذا السياق يستنتج خلاصة هذه الإطار وملامحه العامة، فيعتقد بـ "أن عناصر القصيدة –في فن المديح النبوي- لا تخرج عما رسمته بردة البوصيري كثيرا، فهي تكاد تكون نفسها التي عرضها صاحب "المدائح النبوية في الأدب العربي" لزكي مبارك، حيث يقول: "وتشتمل البردة على عدة عناصر: ففي صدرها النسيب، ويليه التحذير من هوى النفس، ثم مدح النبي والملائم عن مولده ومعجزاته، ثم القرآن والإسراء والمعراج والجهاد، ثم التوسل والمناجاة"٢٧.

ولاشك أن التقسيمات المشار إليها، وهي مستخلصة من نصوص البوصيري وغيره (قبله وبعده) قد فرضت وجودها على غرار "المعمار المتوارث" في تاريخ القصيدة العربية القديمة -قبل أن يثور عليه الشعراء المحدثون- إلا أن هذه البنية التشكيلية –الخارجية- لم تنل من التنظير مثل ما نالته القصيدة العربية من طرف النقاد القدماء.٢٨

ثانيا: بديعيَّة ابن الخلوف القسنطيني×:

لقد اجتمعت في الشاعر ابن الخلوف الأنساب والأصول المتعدّدة والمتجانسة في مضمونها، فهو فاسي مغربي الأصل، قسنطيني جزائري المولد، حجازي فلسطيني النشأة والثقافة، تونسي الدار والقرار والشهرة الأدبية.

فالشاعر إذن تتمثل فيه أبعاد القوميَّة العربية بكلّ أصولها وفروعها٢٩، ضف إلى ذلك تلك الشاعرية الملهمة التي وظفها في شعرهِ متأثرًا بمن سبقه من الشعراء، وبهذا شاعت شهرته الشعرية، وأصبح من المبرزين في ميدان القريض، فكان في مدائحه يبدو ذلك الشّاعر المحترف الذي يعيش من صَفتِه، فهو لا يخفى عن ممدوحه حاجته إلى الظفر بالهدايا النفيسة حتى يحقق بها رغباته.٣٠

وإلى جانب هذا المدح التكَسُّبي نجد له نظمًا آخر في مدح الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، لا ينوي به جاهًا أو سلطانًا أو تكسبا، ولكن بغية نيل رضى الله تعالى وشفاعة رسوله الكريم، ويتمثل ذلك في بديعيته المشهورة المسمَّاة بـ "مواهب البديع في علم البديع".

إنَّ هذهِ البديعية -الميمية- ترجمانٍ لزمنٍ عاش فيه الشاعر، ولبيئةٍ بأحداثِها وتداعياتها، لكننَّا إذا رجعنا إلى ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين لوجدنا القصيدة غير معنونة، إذ بلغت ٢٢٦ بيت.

فهي تجسّد الصوت المغربي، القسنطيني الأصل، التونسي الدار، إنَّها ثلاثية تُثير الحماس والرهبة، والبديعية من عيون الشعر العربي، ومطلعها:٣١

أَمِنْ هَوَى مَنْ ثَوى بالبانِ والعَلَم
هَلَّت براعةُ مُزنِ الدَّمعِ كالعَنَم
أممن بروق الحمى إذ لَمَعَتْ
تمَّت مماثلة الأحشاء للضَّرَم

لقد ابتدأت البديعية بقسم غزلي في ٨٠ بيتًا، ثم تليها ٨٠ بيتًا أخرى في المديح النَّبوي، وآخرها دعاء لنفسه والمؤمنين؛ إذ يقول:٣٢

يا رَبّ سَهِّل إلى الجَنَّات مُنقلبي
ونجني بامتداحي من لظى الصَرَم

وإذا أمعنا النظر مرَّة أخرى لبديعية ابن الخلوف نجدها تتكون من ثلاث محطات رئيسية هي:

١-براعة الاستهلال: أو حسن المطلع- كما قلنا- ابتدأها الشاعر بمقدمة طللية غزلية طويلة بلغت ٨٠ بيتًا أو ما يسمى (النسيب النَّبوي).

إنَّ الطلل له دلالته العميقة، فهو رمزٌ لحقائق جوهرية في الحياة لمشاعر، لآهات وذكريات، حيث يُعَدُّ حلقة وصل بين الحاضر والماضي، فلا غزو أن يبقى الشاعر العربي مُحَافِظًا على هذا التقليد منذ القدم، ويجعله متنفَّسًا له في كُلّ ما يعانيه من أزمات نفسيَّة أو اجتماعية، أو ثقافية.٣٣

لقد بقيت هذه المقدمة بصمةً لكلّ القصائد العربية، و"ابن الخلوف" شأنه شأن أولئك الشعراء، فلقد ابتدأ قصيدته بطلع نلمح من خلاله نارًا متَّعَدَةً، وشوقًا متأججًا، وحبًّا يكاد يمزق ضلوعه، وحنينًا؛ حيث يقول:٣٤

أَمِنْ هَوَى مَن ثَوَى× بالبانِ×× والعَلَم
هَلَّت بَرَاعَةُ مُزْنِ الدَّمعِ كالعَنَم
أم من بُرُوقِ××× بُرُوقِ الحَيِّ إذا لَمَعَتْ
تَمَّتْ مُمَاثَلَةُ الأَحْشَاءِ للضَّرَم
فاستوف مَدَّ نَوَالٍ مَدَّ نَائلة
مِنْ مَنْ وَادِعُهُ يا جَامِعَ الكَلِم
وَصْلٌ ببدرٍ مِنْ مَحَاسِنِهِمْ
مَضَاهُ لليْلِ تَمَامٍ مِنْ شُعُورِهِم
وَحَيَّ سَلْعًا، وَسَل عن حَالِ مختلِفٍ
واخْضَعْ وَسَلْ مَا لِسَلْمَى رَكِبَتْ سَقَمِي

لقد تفرَّد الشاعر ابن الخلوف بمطلع القصيدة الغزلي، فقد وَجَدَ فيه متنفَّسًا للتعبير عن مكنون ذاته المتألّقة والمناجية لحبّ كبير كامنٌ صَدَحَ به في مقدمة بديعيته فكان الهوى، آلام البعد والهجران، إنَّها نوع من المناجاة الأليمة،تجلَّى ذلك في سؤاله الاستنكاري: أَمِن هَوَى مَن ثوى..؟ مازجًا موهبته البديعية والموقف الذي هو فيه، متفرّدًا عن أصحاب المطالع السَّابقة في الشعر العربي.٣٥

فَرَوعَةُ الشَّاعِر تَتجَلَّى في هذه التوأمة الرُّوحية بين المكان والمحبوب، والألم وَالسَّعَادة، براعة الاستهلال والوقفة الطَّللية، إنَّها نادرة في الشعر العربي، حيث يتَّخِذُ الشاعر سبيل الدُّموع كملاذ له، فكأنَّها معادل موضوعي لحياة زاهرة كانت وولَّت، لكنَّه لا يبكي المكان بل يتوجع ويبكي حياة وحدانية بأسرها.٣٦ فعباراته "أمن هوى من توى"، "هلَّت براعة مُزن الدَّمع"، "مماثلة الأحشاء للضَّرَم"، "جامع الكلام"، "حي سلعًا"، "وسل عن حال مختلف"، "سل ما لسلمَى"... إلخ، عبارات كلَّهَا تُؤول إلى دلالات عميقة، وبُنى تحتية انبنت عليها البديعية، و"من لديه أدنى بصيرة يعلم أنَّ للألفاظ لذيذة كنغمة أوتار".٣٧

وبذلك تتحول تلك الألفاظ إلى نغمات جميلة، تتقاذفها دوال تثير الجدل والتساؤل حول دلالات وبُنى تفتح مجالاً واسعًا ليسمو القارئ بمخيلته نحو الإبداع في مجال البديع، فتكثر هنا التفاسير والتأويلات حول مضامين البديعيات وتشكيلاتها الموضوعية.

لننقل بعد ذلك إلى صلب الموضوع في البديعية النبوية "مواهب البديع في علم البديع" ونقف عند الجزء الثاني منها وهو في مدح الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم.

٢-براعة التخلص: لا تحل بديعية من البديعيات العربية إلاَّ وكان فيها ذكر كبير لميلاد الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وابن خلوف شأنه شأن جل الشعراء الذين تحدَّثوا عن ميلاده صلَّى الله عليه وسلَّم، وصفاته وشمائله ومعجزاته وذكر أصحابه وآله الكرام؛ حيث نجده يقول:٣٨

بُشرى الذَّبيح× بنْ فيَّاض ابن هاشم
ابن المغيرة فاعجب بإطّرادهم××
لم يُعْزَز يَدٌ له التلفيق فاصْيغ وَقُلْ
ما كان طَهَ أَبَا ابْنٍ من رِجَالِهِم
كَنْزُ إدّخاري عَلاَهُ شمسُ مُرْتَقبِي
غَوْثُ اضْطِرَاري صباحي في دُجَى ظُلُم

إنَّ ذكر الشاعر لنسب الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، ورد في شكلٍ عفوي رائع يُومِئُ لعظمة الممدوح وسموه وجلاله، فهو يجسّد بطريقة أو بأخرى موقف الشاعر الانفعالي وعاطفته الجيَّاشة المستمدة من حب ثابت وراسخ.

إلى جانب ذكر نسبة صلَّى الله عليه وسلَّم في البيت الأول، نجد معه ذكر للنوع البديعي المتمثّل في الاطراد.

نلاحظ هنا تلك البراعة والمزاوجة بين المضامين المعرفية، الشعرية من جهة والبلاغية من جهة أخرى تصبغها في ذلك جمالية التعبير ووجدانية العاطفة، تسمو بالممدوح وبقدره ومكانته، إذ يقول في موضع آخر:٣٩

واقْصر عَليه السَّنَا× حتمًا، ومُدَّ به
عَالي السَّناء وَهمْ في مَدّ قَصْرهمْ
ما الشمسُ إنْ رَمَتْ تشبيهَا بوَاضحَة
إلاَّ ككَافُورَة في جَوْهَر نَظم
وَلاَ الحُسَامَ إذَا سُلَّت وَغرَّتُهُ
من بَعْد نَفْيكَ إلاَّ البَرْقْ في الدّيم
سَهْلُ الرّضَى وَاللّقَاء والجُودُ مُمْتَنعٌ
إنْ بُدّلَتْ كَلمَاتُ القَادر المُحْتَكم

والأمر يتوقف عند هذا الإبداع فقط وهذا التخلص إذ يتجاوزه الشاعر للوصول إلى أعلى قمَّة إنسانية، تتصارع فيها الأفكار وتتباين الأسرار التي يَوَدُّ كل واحد كشفها والنفاذ إلى بنيتها الدلالية العميقة، فتكون بذلك النفس الإنسانية واحدة منها، يعرج عليها الشاعر ليعترف بذنوبه راجيًا وداعيًا ومتوسلاً في آخر البديعية.

٣- براعة الختام: يتمثل عادة في كل بديعية بل وفي كلّ قصيدة نبوية الدعاء والتضرع والتوسل؛ فالشَّاعر يتأسَّى ويَوَدُّ الوصول إلى مبتغاه؛ لأنَّ مدحه وتفننه وإبداعه في بديعيته كان تمهيدًا لغاية سامية يروم بلوغها وهي دخول الجنَّة، والنجاة من النار، ويكون بجانب الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ يقول:٤٠

يَا رَب سَهّلْ إلَى الجَنَاب مُنْقَلبي
ونجّني بامتداحي منْ لَظَى الهَرَم
واحسن رَيْحَانَ رَجَا ابْن الخُلُوف وَجُدْ
بالعَفْو والجُود يَاذا الصَّفْح والكرم

ويرجع إلى التوسُّل والتضرُّع لنيل الشفاعة من أكرم الخلق في أرقّ وأجلّ معنى وأبْهَى لفظ إذ يقول:٤١

وَلاَ تُعَسّرْ فَمَا لي لرُّجُوع يَدٌ
يَا ذا الجَلاَل ويا ذا الإكْرَامَ وَالحَرَم

لقد تضمن البيت آية من القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَام)٤٢، طالبًا النّجاة متحسّرًا عما بَدَا منه من خطايًا، نادمًا عَما فعله، فنداؤه هذا من الأعماق، فلم يجد الشاعر مخرجًا يخرجه من حالة اليأس والوهن إلا شعره كترجمة لفكره؛ ليَحُولَ بينَهُ وبين العذاب، إذ يقول:٤٣

وَجَازني باحْترَامي في مَدَائحه
منْ غَير أَمَد وواصلْ وَافرَ النّعَم

لقد واءَمَ الشّاعر في هذا البيت بين الطلب والمعنى الذي من أجله نظم بديعته، وهو مدح الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم، لأنَّه الطَّريقُ الوحيد لنيل الشفاعة، ثمَّ إنَّه يدعو الله تعالى في النهاية بأن يخلّصهُ من الجحيم ووالديه، إذ يقول:٤٤

وبابْتَدَاء المَديح خَلّصْ أَهْلَ ملَّته
وَوَالَدَيَّ وَهَبْ لي حُسْنَ مُخْتَتَم

وفي براعَة يختتم الشاعر بديعيته من خلال اللون البديعي "حسن التخلص" الذي نادى به ربَّه ليخلص أهل ملَّته ووالديه من العذاب، متضرّعًا لله تعالى أن يهبَ له "حسن الختام"؛ محققا بذلك الفائدة العلمية والجمال الفني، مجسدًا لفنٍّ إسلامي جديد، سواء من حيث التَّشَبُّع بالمعاني الإسلاميَّة، أو جودة الصياغة والعاطفة الحارة، النَّابعة من أعماق الوجدان، والمفعمة بأحاسيس مختلفة، بداياتها ومطلعها استهلال وشوق وحنين عن طريق الغزل والنسيب النَّبوي، وصولاً إلى تخلص وتفرُّغ لمدح الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم مشيدًا بصفاته الخَلقية والخُلقية، وتذكر الأيَّام والعهود، صادحًا بعظيم معجزاته، معرجًا على آله وصحبه، منتهيًا بالتَّوسُّل والبكاء، طالبًا حسن الختام والإعانة والغفران وندم في مقام الدُّعاء والتضَرُّع.

فهرس الهوامش:

١- محمد فتح الله مصباح، بردة البوصيري وأثرها في الأدب العربي القديم، ص:٤٥١.

٢- محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ١٩٧٣م، ٣٦٢/٣.

٣- مقدمة ديوان البوصيري، ص: ٠٦.

٤- ينظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٩٩٤م، (د.ط)، ص: ٤٩٢، وجلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ٤٦٤/١.

٥- علي نجيب عطوي، البوصيري شاعر المدائح النبوية وعلمها، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ص: ٨٠.

٦- رابح بوحوش، البنية اللغوية لبردة البوصيري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، (د.ط)، ص: ٠٨.

٧- محمد الطاهر ابن عاشور، شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح، تع: محمد الطاهر بن عاشور الحفيد، مر وتق: عبد الوهاب الدخلي وجمال الدين دراويل، دار الجنوب للنشر، تونس، أوت ٢٠٠٨م، (د.ط)، ص: ١٠.

٨- ينظر: علي نجيب عطوي، البوصيري شاعر المدائح النبوية وعلمها، ص ص: ٨٠-٨١.

٩- محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص: ٣٥٣.

١٠- أحمد عمر هاشم، الإمام البوصيري وبردة المديح المباركة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة الخامسة العد التاسع عشر، نوفمبر ١٩٩٧م، رجب ١٤١٨هـ، ص: ٨٣.

١١- محمد الطاهر ابن عاشور، شفاء القلب الجريح، ص: ١١.

١٢- ديوان البوصيري، شرح: عمر الطباع، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م، (د.ط)، ص: ٢٢.

١٣- محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص: ٣٥٤.

× جاء في لسان العرب البردة هي البرد وهو ثوب فيه خطوط، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٩٧م، مج: ١، مادة (برد)، وفي القاموس بمعنى: أكسية يلتحف بها، ينظر: الفيروز آبادي، قاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط٦، ١٩٩٨م، مادة (برد).

١٤- ينظر: حاشية العلامة الشيخ الباجوري على متن البردة وبهامشها شرح الشيخ خالد الأزهري على البردة أيضا، مطبعة التقدم العلمية، مصر، ١٣٢٦هـ، ص: ٠٣.

١٥- ديوان البوصيري، ص: ١٩٠.

١٦- محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، ص: ٣٥٤، وينظر: عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر المملوكي دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٩م، ص: ٦٣٣ وما بعدها.

١٧- ينظر: ديوان البوصيري، ص ص: ١٩٩، ٢٠٠.

١٨- ينظر: حسن حسين ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم مكتبة مدبولي، مصر، (د.ط، د.ت)، ص ص:١٢، ١٣.

١٩- ينظر: رابح بحوش، البنية اللغوية، ص: ١١.

٢٠- زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: ١٧١.

٢١- ينظر: فيصل بن علي البعداني، حقوق النبي بين الإجلال والإخلال، مجلة البيان، الرياض-السعودية، ط١٠، ٢٠٠٦م، ص ص: ١٦٩، ١٧٠.

٢٢- ينظر: سعيد ابن الأحرش، بردة البوصيري، بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، آثارهما العلمية وشروحهما الأدبية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٨م، ١٤١٩هـ، (د.ط)، ص:٤٧.

٢٣- ينظر: سعيد ابن الأحرش، بردة البوصيري، ص: ٨٣ وما بعدها.

٢٤- ينظر: زكي مبارك: المدائح النبوية، ص ص: ١٩٧، ١٩٨.

٢٥- رابح بوحوش، البنية اللغوية، ص ص: ١٠، ١١.

٢٦- علي نجيب عطوي، البوصيري، ص: ١٦٨.

٢٧- ينظر: زكي مبارك، المدائح النبوية، ص: ١٨٤.

٢٨- أحمد الطريبق أحمد، الخطاب الصوفي في الأدب المغربي على عهد السلطان المولى إسماعيل (الرسائل-الشعر)، طبع بدعم من وزارة الثقافة، طنجة-المغرب، ٢٠٠٨م، (د.ط)، ص ص: ٦٠٢، ٦٠٣.

× الشاعر: هو أحمد بن عبد الرحمان الشهاب أبو العباس بن أبي القاسم الحميري الفاسي الأصل، القسنطيني المولد، التونسي الدار، المغربي المالكي، ويعرف بالخلوف، وُلِدَ في ثالث المحرم سنة تسع وعشرون وثمان مائة ٨٢٩هـ - ١٤٢٥م بقسنطينة، وسافر به أبوه هو في المهد إلى مكَّة فأقام معه فيها أربع سنين، ثمَّ تحوَّل إلى بيت المقدس فَقطِنَهُ، للاستزادة ينظر: عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة-الجزائر، ط١، ١٩٨٦م، ١٤٠٦هـ، ص: ١٤٦، ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين، المعروف بديوان الإسلام، تق وتحق: العربي دحو، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ديسمبر ٢٠٠٤م، (د.ط)، ص:٠٩.

٢٩- عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص ص: ١٤٦، ١٤٧.

٣٠- عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص: ١٥٠.

٣١- ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين، ص: ٤٤.

٣٢- الديوان، ص: ٤٤.

٣٣- نورة بن سعد الله، البديعيات، ص: ٨٧.

٣٤- ابن الخلوف، مواهب البديع في علم البديع، تحق: حورية رواق، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص: ٠٥.

× ثوى: ثوى بالمكان: أقام ونزل فيه، ويسَّمى المنزل مَثوَى، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة منقحة، دار صادر، بيروت- لبنان، ط:٤، ٢٠٠٥م، مج:٣، مادة (ثوا)، ص: ٥٦.

×× البان: شجر يسمُو ويطول في استواءٍ، بيت في الهضاب، وثمرته شبه قرون اللُّوبياء إلاَّ أنَّ خضرتها شديدة الخضرة ولها حبٌّ ومن ذلك الحب يُستخرج دُهنُ البان، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة منقحة، دار صادر، بيروت- لبنان، ط:٤، ٢٠٠٥م، مج:٢، مادة (بَيَن)، ص: ٢٠٠.

××× فُرُوق: موضع في ديار بني سعد، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة منقحة، دار صادر، بيروت- لبنان، ط:٤، ٢٠٠٥م، مج:١١، مادة (فَرَق)، ص: ١٧٢.

٣٥- نورة بن سعد الله، البديعيات، ص: ٨٧.

٣٦- نورة بن سعد الله، المرجع السابق، ص: ٨٨.

٣٧- حسن ناظم، البنى الأسلوبية -دراسة في أنشودة المطر للسَيَّاب-، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط:١، ٢٠٠٢م، ص: ٨٣.

٣٨- حورية رواق، بديعية مواهب البديع، ص: ١٣.

× الذَّبيح: إشارة إلى أب الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم عبد الله بن عبد المطلب الذي نذر أبوه ذبحه للكعبة، ثمَّ فُدِي بمائة من الإبل.

×× الإطراد: هو أن يجيء الشَّاعر باسم الممدوح، ولقبه وكنيته، وصفته، واسم أبيه وجدّه وقبيلته غالبًا أو ما أمكن من ذلك مُطَّردًا متواليًا في بيتٍ واحدٍ من غير تعسف ولا تكلُّف، ينظر: صفي الدين الحلي، شرح الكافية البديعية، ص:١٣٢.

٣٩- حورية رواق، بديعية مواهب البديع، ص: ١٣.

× السَّنَا: مقصور ضوء البرق، والسَّنا أيضًا: نَبتٌ يُتَدَاوَى به، والسَّنَاءُ: من الرفعة والسَّيءُ: الرَّفيع، ينظر محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرَّازي، مختار الصحاح، طبعة جديدة ومنقحة، دَارُ الحديث، القاهرة-مصر، ٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ، باب (السين)، (سَ ن ا)، ص: ١٨١.

٤٠- حورية رواق، المرجع السابق، ص: ٢٧.

٤١- حورية رواق، بديعية مواهب البديع ، ص: ٢٧.

٤٢- سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

٤٣- حورية رواق، المرجع السابق، ص: ٢٧.

٤٤- حورية رواق، المرجع السابق، ص: ٢٧.